**المحاضرة الأولى**

**الهدف من مادة الأدب المقارن:**

تهدف هذه المادة إلى تعريف الطالب بالأدب المقارن ، حيث تعد تعد مدارس الأدب المقارن: الفرنسيّة، والأمريكيّة، والسلافيّة، والعربيّة... مدارس مهمة في الدّراسات الأدبيّة المقارنة، فرغم اختلاف وجهات نظرها وأسّسها ومبادئها... إلا أنها كلّها محاولات جادة في هذا الميدان، كلّ واحدة حاولت تجنب النقائص والسلبيات التي وقعت فيها المدرسة السابقة لها، محاولة الإلمام بتلك النقائص خدمة للأدب المقارن. عساها تمد جسور التواصل بينهم وبين حقل معرفيّ لا يمكن تجاهله، لكونه جزءا مُهما في المنظومة التعليميّة الأدبيّة واللّغويّة على المستويّين المحليّ والعالميّ.

**الفئة المستهدفة:** موجه لطلبة السنة الثالثة أدب عربي.

**الكلمات المفتاحية**

الأدب المقارن،المدرسة السلافية،ىالفرنسية، الأمريكية، علاقات التأثير والتأثر.

**المحاضرة الأولى**

**- الأدب المقارن: المفهوم والنشأة والتطور**

يعتبر الأدب المقارن فرعا من فروع المعرفة، يهتم بروابط التشابه والقرابة والتأثير بين أدبين أو أكثر من لغتين مختلفتين أو أكثر. وقد اختلف الباحثون في تسمية هذا الحقل المعرفي، فالفرنسيون يطلقون عليه اسم "تاريخ الأدب المقارن" أو "التاريخ المقارن للآداب" والأمريكيون يسمونه "النقد الأدبي المقارن"... لكنه أُشتهر باسم "الأدب المقارن".

يدرس الأدب المقارن العلاقات التي تقوم بين أدبين أو أكثر، يبدأ بنصوص مكتوبة بلغة قومية[[1]](#endnote-2)\*، ينطلق منها تدريجيا ليكشف علاقاتها بنصوص أخرى كتبت بلغة قومية مغايرة. أي أنه يقارن بين أدب قوميّ[[2]](#endnote-3)\*\* بلغة معينة مع أدب قوميّ آخر كتب بلغة أخرى مختلفة. وقد كان يهتم في الأوّل بمختلف فنون القول الشّعبيّة، أي بدراسة الأدب المنطوق، ولاسيّما القصص والحكايات الشّعبيّة، وكيف تهاجر من مكان إلى مكان آخر... وتندمج في الأدب الفني.

ويبحث الأدب المقارن عن تاريخ العلاقات الأدبية، يقول فرنسوا غويار «إن الأدب المقارن هو تاريخ العلاقات الأدبية الدولية. من هنا أن الباحث المقارن يتوقف عند الحدود اللغوية أو الوطنية ويراقب تبادل المواضيع والأفكار والكتب والمشاعر بين أدبين أو أكثر». ﻓ «الأدب المقارن هو الفن المنهجي الذي يُقرّب، بفضل البحث في علاقات التشابه والقرابة وتأثير الأدب من ميادين التعبير الأخرى، أو من ميادين المعرفة، أو يقرب الأحداث والنصوص الأدبية فيما بينها بغض النظر عن قربها أو بعدها زمانيا أو مكانيا، شريطة أن تنتمي إلى لغات أو ثقافات متعدّدة، حتى لو كانت تنتمي إلى إرث واحد، وهذا بغية وصفها وصفا أفضل وفهمها وتذوقها» وهذا يعني أن الأدب المقارن وصف تحليليّ، ومقارنة منهجية، يبحث في علاقات التشابه والتأثير ليقرب النصوص الأدبيّة فيما بينها شريطة أن تكون منتمية إلى لغات مختلفة. فهو «العلم الذي يدرس على نحو خاص آثار الآداب المختلفة، في علاقاتها المتبادلة».

وقد وسع "هنري ريماك" مفهوم الأدب المقارن، فدعا إلى ربطه بمختلف الفنون والعلوم، كالفلسفة، والفنون الجميلة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعيّة، والعلوم التجريبيّة، وربطه بمختلف العقائد والديانات... أي أنه دعا إلى ربط مختلف العلوم الإنسانيّة بالعلوم التجريبيّة، ذلك أن الآداب والعلوم مكملة لبعضها البعض...

وقد تأثر الباحثون العرب بالمفاهيم الغربية للمصطلح، فنجد مثلا أن الباحث المصري "محمد غنيمي هلال" قد تأثر بالمفهوم الفرنسي للأدب المقارن، فربطه بالتاريخ، يقول: «مدلول "الأدب المقارن" تاريخيّ، ذلك أنه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير وتأثر، أيا كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثر: سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية، أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب...». فدراسة الأدب المقارن «لا تنفصل عن دراسة النقد الأدبي والتاريخ الأدبي. إنه يأتي في المرحلة الثالثة بعد الفهم الواعي لوظيفة النقد الأدبي والرصد الجاد لمسيرة الأدب التاريخية والتعرف على أصوله ومصادره» ذلك أن «للتاريخ دورا مهما في الدراسة المقارنة لإثبات الصلات بين الأدباء أو نفيها. وإذا ثبت الصلة تاريخيا أمكن لدارس الأدب المقارن أن يتعرض للموضوع ويتناوله في دراسته. وليس معنى هذا أن يكون هناك صلّة شخصية بين الأدباء ولكن يكفي أن يثبت أن الفكرة قد انتقلت من بيئة إلى بيئة بحيث يحتمل أن تكون قد انتشرت في تلك البيئة الجديدة...». أي ينبغي أن تكون هناك صلّة تاريخيّة بين الآداب التي نريد مقارنتها. وهو يبحث عما «أخذ هذا الأدب وماذا أعطى، وعلى هذا فالدراسة في الأدب المقارن تصف انتقالا من أدب إلى أدب، قد يكون هذا الانتقال في الألفاظ اللغوية أو في الموضوعات أو في الصور التي يعرض فيها الأديب موضوعاته أو الأشكال الفنية التي يتخذها وسيلة للتعبير كالقصيدة أو القطعة أو الرباعي أو المزدوج أو القصة أو المسرحية أو المقالة» أي أنه يدرس كيفية انتقال مختلف الظواهر الأدبيّة من أدب إلى أدب آخر شكلا ومضمونا.

ويعد اختلاف اللّغة شرطا أساسيا في الدّراسات الأدبيّة المقارنة، فالأعمال الأدبيّة التي تُكتب بلغة قوميّة واحدة تخرج عن مجال الأدب المقارن سواء كانت هناك صلّة تاريخيّة بين نصوص المقارنة أم لا، لأنّها عبارة عن موازنات تمت بين أبناء اللّغة الواحدة، مثل الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ومثل الموازنة بين الحريري وبديع الزمان الهمذاني. كما تُستبعد أيضا الدّراسات التي تعقد بين كتاب من آداب مختلفة لم تقم بينهم صلات تاريخيّة....

ويرى بعض الباحثين أن الأدب المقارن يتلاقى مع الأدب العالمي والأدب العام أو الشامل، لكون هذه الآداب لا تكتفي بدراسة أدب قوميّ واحد، بل تتعداه إلى أكثر من ذلك، فالباحث "رينيه ويليك" مثلا يرى أن الفصل بين الأدب المقارن والأدب العام فصل مصطنع، ومن ثمَّ فمن المستحيل وضع خط فاصل بينهما.... كما نجد أيضا أن "دانييل هنري باجو" لا يميّز بينهما، فقد أطلق على كتابه اسم "الأدب العام المقارن... لكن لهذا المفهوم صعوبات واعتراضات عند بعض الباحثين، ذلك أن «الأدب العام هو دراسة المصادفات والمتشابهات الأدبيّة، في الحين أن الأدب المقارن (بمعناه الضيق) هو دراسة التأثيرات المتبادلة، غير أن الأدب العام يتضمن الأدب المقارن». فالأدب العام يتميّز باتساع الرقعة الجغرافية نوعا ما مقارنة بالأدب المقارن، كدّراسة "الواقعية مثلا بين شعوب البحر الأبيض المتوسط". وهو يسعى إلى إبراز الأسباب العامة للظواهر الأدبيّة، لأنّنا إذا درسناها متأثرة كالأدب المقارن لا نحصل على العوامل الجوهرية،، لكنه في الوقت نفسه ينتفع بنتائج الأدب المقارن....

أما الأدب العالمي الذي استخدمه أوّل مرّة الشّاعر الألماني "جوته" فهو أوسع من الأدبين السابقين، فهو «يسعى في الواقع إلى إحصاء الروائع الأدبيّة التي تكون التراث البشري وشرحها، وكذا عناوين مجد الكرة الأرضية، وكلّ ما تجاوزت ملكيته الأمة الواحدة ليصبح في الوقت نفسه ملكية لمجمل الأمم، فيحدث بالتالي توازنا ما بين الوطني وما يتعداه». باختصار يختلف عنهما الأدب المقارن في كونه غالبا ما يقارن بين أدبين قوميّين من لغتين مختلفين، باحثا عن علاقات الاشتراك والـتأثر والتأثير... بينهما.

ومجمل القول، إن الباحثين المقارنين قد اختلفوا في تحديد مصطلح الأدب المقارن، فهناك من يكتفي بالمقارنة بين أدبين قوميّين من لغتين مختلفتين، وهناك من يفضل أن تكون المقارنة بين عدّة آداب قوميّة – ولاسيّما الذين لا يميّزون بين الأدب المقارن والأدب العام- وهناك من دعا إلى مقارنة الآداب بظواهر أخرى غير أدبيّة، كربطه بمختلف الفنون والعلوم...

ولم ينشأ الأدب المقارن دفعة واحدة بل هناك إرهاصات عديدة ساهمت في ظهوره، أي هناك مرحلة ما قبل نشأة الأدب المقارن ثم تليها مرحلة النشأة.

**أ- مرحلة ما قبل نشأة الأدب المقارن**

أقدم ظاهرة في تأثير أدب على أدب آخر هو تأثير الأدب اليونانيّ على الأدب اللاتينيّ، ففي عام 146 ق. م اجتاحت الجيوش الرومانية بلاد اليونان فهزمتها عسكريا، لكن انهزمت روما أمامها ثقافيّا، فأصبحت روما المنتصرة عسكريا تابعة لليونان ثقافيّا وأدبيّا. ولكن لهذا الغزو اليونانيّ الثقافيّ آثاره الخطيرة على الأدب الرومانيّ الذي أصبح محاكاة صادقة للأدب اليونانيّ، فلم تعد له أيّة أصالة تذكر إلا في التاريخ والخطابة. ولقد أثمر هذا التأثير لدى النقاد اللاتينيّين ما كان تمهيدا لنشأة نظرية المحاكاة[[3]](#endnote-4)\* في عصر النهضة الأوروبيّة، وهي نظرية تدعو إلى محاكاة اللاتينيّين لأدب اليونان للنهوض بالأدب اللاتينيّ، وهذا المفهوم للمحاكاة يغاير مفهوم المحاكاة التي دعا إليها أرسطو حين حدّد الصلّة القائمة بين الفن والطبيعة وعالم المثل، فالشّاعر عند نقاد الرومان يحق له أن يحاكي العباقرة الذين هم بدورهم قد حاكوا الطبيعة، فأخذ "هوراس" يردّد "اتبعوا أمثلة الإغريق، واعكفوا على دراستها ليلا، واعفوا على دراستها نهارا" فهو يعترف بأن محاكاة اليونان يمكن أن تكون مثمرة مادامت لا تمحو أصالة الأدب الروماني. بهذا استطاع الأدب الروماني أن يزدهر نتيجة محاكاته الجيّدة والمثمرة لأدب اليونان.

أما في العصور الوسطى (1395 – 1453م) فقد خضعت الآداب الأوروبيّة المختلفة لعوامل مشتركة، فوثقت علاقاتها ببعضها البعض، فحدث بينها تأثيرات فنيّة متبادلة تجلت في مظهرين، أوّلهما: ديني، حيث كان رجال الدين هم المسيطرون على الأدب، فكانت اللاتينيّة لغة العلم والأدب والكنيسة، وثانهما: الفروسيّة التي وحدت بين كثير من الآداب الأوروبيّة في تلك العصور.

وقد عادت الآداب الأوروبيّة في عصر النهضة (القرن الخامس عشر والسادس عشر) إلى الآداب اليونانيّة واللاتينيّة بغية تطوير نفسها، وكان للعرب فضل توجيه الأنظار إلى قيمة النصوص اليونانيّة بفضل ترجماتهم للفلسفة اليونانيّة ولاسيّما فلسفة "أرسطو". فحاول رجال النهضة العودة إلى تلك النصوص الأصلية وترجمتها والتعليق عليها، بهذا خرجت من آداب العصور الوسطى ذات الطابع المسيحي[[4]](#endnote-5)1. أي عودة من جديد إلى الآداب الأصليّة (اليونانيّة واللاتينيّة).

وقد كانت تلك العودة على يدي طائفة من الشّعراء المجدّدين في الأدب الفرنسيّ في عصر النهضة، تعرف ﺑ "جماعة البلياد" أو "جماعة الثريا" وهم سبعة شعراء (دورا، دي بلي، رونسار، ريمى بلو، جودل، وبانيف، وبلبلية) اتفقوا على الترويج لنشر الثقافتين اليونانيّة والرومانيّة واتخاذهما وسيلة لإثراء اللّغة الفرنسيّة. فالشّاعر والناقد "دورا" (1508 – 1588) مثلا كان حريصا على تلقين تلاميذه معنى نظرية المحاكاة، إذ أوضح لهم ما تدين به اللاتينيّة لليونانيّة، فبفضلها ازدهر وتطور الأدب اللاتينيّ، فشرح لهم كيف أن "فرجيل" اللاتينيّ قد تأثر بشاعر اليونان "تيوكريت"، وأن شاعر اليونان "بنداروس" قد ألهم شاعر اللاتين "هوراس"....

أما الناقد "دي بلي" (1522 – 1560) فقد قال في دفاعه عن اللّغة الفرنسيّة "بدون محاكاة اليونانيّين لن نستطيع أن نمنح لغتنا ما شهر به الأقدمون من سمو وتألق" فهو يرى أنه لابد للعودة إلى النصوص القديمة وهضمها، وأن الترجمة غير كافية في الأدب إذ لابد من إتقان اللّغة للحفاظ على الخصائص اللّغويّة والأدبيّة. ﻓ "جماعة البلياد" ترى أنه لا يجوز محاكاة الكتاب والشّعراء من نفس اللّغة لأن ذلك يؤدي إلى جمود اللّغة.... أي أن هذه الجماعة ترى أن المحاكاة ليست هي محاكاة للأدب القوميّ، بل هي محاكاة للنماذج الجيّدة في الآداب الأجنبيّة.

أما العصر الكلاسيكيّ (القرن السابع عشر والثامن عشر) فقد اتجه بتأثير نظرية المحاكاة إلى التقنين في الأدب، أي إلى النقد الفني العلمي متخذا من الآداب القديمة مثالا يحتذى، فكانت مهمة الناقد وضع قواعد لمختلف الأجناس الأدبيّة، ثم دعوة الكتاب للسير عليها لذلك كانت تقاس براعة الكُتاب بمدى التزامهم بتلك القواعد والآداب القديمة.

إن وجود التأثير والتأثر بين أدبين مختلفين أو أكثر سابقا على وجود علم الأدب المقارن، ولعلّ من بين الظروف التي لم تساعد على قيام هذا اللّون من الدراسات قبل العصر الحديث تلك النظرة التي كانت تتبادلها الشّعوب في التاريخ القديم والوسيط، أين كان كلّ شعب يعتقد أن لغته تفوق كلّ اللّغات. وهذا ما لم يسمح بظهور الدّراسات الأدبيّة المقارنة

1. [↑](#endnote-ref-2)
2. [↑](#endnote-ref-3)
3. [↑](#endnote-ref-4)
4. [↑](#endnote-ref-5)